مجلة جامعة الملك سعود، م٣، الآداب (١)، ص ص ٣ - ٣٤ (١٤١١هـ / ١٩٩١م).

الفصحى بين نظريتين[١]: نظرية القدماء، ونظرية المحدثين (موازنة ومناقشة)

حسن عيسى أبو ياسين

أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب،
جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية

(ورد بتاريخ ١٧/٤/١٤٠٨هـ وقبل للنشر بتاريخ ١٧/١٠/١٤٠٨هـ)

ملخص البحث. تعنى هذه الدراسة بجمع ما تفرق من آراء القدماء والمحدثين حول تاريخ نشأة الفصحى وتكونها وتجعل ذلك في إطار نظريتين، نظرية المحدثين عند طه حسين، وشوقي ضيف، ومصطفى صادق الرافعي، وإبراهيم أنيس؛ ونظرية القدماء حيث عرضت فيها العديد من النصوص التي تشكل في مجموعها تصورهم لنشأة هذه الفصحى وتكونها. ثم خلصت هذه الدراسة إلى معالجة الجوانب الآتية: ١ - الموازنة بين النظريتين؛ ٢ - مناقشة قضيتين رئيستين بموضوع نشأة الفصحى وتكونها وهما قضية الإعجاز البياني في القرآن الكريم، وأولية الشعر الجاهلي وارتباطها بتاريخ تكون الفصحى. وقد زودت هذه الدراسة بشروح ضافية تفسر مصطلحاتها التي وردت فيها.

---

[١] أولا: الفصيح والفصاحة: (جاء في *اللسان/فصح*): الفصاحة: البيان والكلام الفصيح: البليغ، ولسان فصيح: طلق، والفصيح في اللغة: المنطلق اللسان في القول الذي يعرف جيد الكلام من رديئه وأنشد لنفلة السلمي:

رأوه فأزدروه وهو خِرْق ... وينفع أهله الرجل الفصيح
فلم يخشوا مصالته عليهم ... وتحت الرغوة اللبن الفصيح

وجاء في *التاج* (فصح): الفصح والفصاحة: البيان. قال أئمة المعاني والبيان: حيث ذكر أهل اللغة الفصاحة *فمرادهم كثرة الاستعمال*.

=

تعنى هذه الدراسة بعرض الآراء والنظريات التي نشأت حول قضية «الفصحى» من حيث نشأتها وتكونها واتخاذها الشكل النهائي الكامل «من حيث الإعراب والتصريف والاشتقاق أو من حيث التنويع الواسع في الجموع والمصادر وحروف العطف وأدوات الاستثناء والنفي والتعريف والتنكير والانتهاء بالممنوع من الصرف إلى نظام تام منضبط، مضافا إلى ذلك احتفاظها بحروف ومخارج لم تحتفظ بها لغة سامية احتفاظا كاملا وهي الثاء والخاء والذال والظاء والضاد والغين.»(٢)

= وفي كلا المصدرين فائدة فما في *اللسان* دليل على أن الفصيح من الألفاظ هو ما خلا من الشوائب (وتحت الرغوة اللبن الفصيح) فرغوة اللبن تعلق بها كل شوائبه فيصير ما تحتها لبنا صافيا خاليا من كل شائبة، وكذا الكلام الفصيح يعلق برغوته كل مستقبح ومستبشع من الألفاظ ومن هنا ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم وتلتلة بهراء وكشكشة هوازن وتضجع قريش نفسها وعجرفية ضبة.

وما في *التاج* دليل آخر على أن الفصحى هي ما توافق ألفاظها المقياس المقرر في اختيار الأفصح من الألفاظ كما بينه النص الثاني فقول الزبيدي «فمرادهم كثرة الاستعمال» تفسير لما ورد في النص الذي يتصل ببيان عناصر وخصائص اللفظ الفصيح، إذ من بينها أن يكون اللفظ من أكثر الألفاظ الواقعة فيه شيوعا وانتشارا ولعل الزبيدي قصد إلى هذا حين عيَّن الفصيح بكثرة الاستعمال.

ثانيا: الفرق بين قولنا «لغة» وقولنا «لهجة» وقولنا «لسان». أما الفرق بين اللغة واللهجة فقد بينه الدكتور إبراهيم أنيس، وأنا أنقل قوله هنا:

اللغة لا تعني اللهجة بأي حال، فاللغة من العام واللهجة من الخاص، اللغة أن يكون الفصيح قولك «هلم» ولغة فيه قولك «تعال وأقبل» فتعال لغة في هلم لبني فلان وأقبل لغة في هلم لبني فلان، وقولك «العهن» معروف، والصوف لغة فيه لبني فلان، أي أن اللغة تعني وجود لفظ آخر في معنى لفظ فصيح.

أما اللهجة فليست من اللغة، فهي تختص برصد ظواهر نطق الكلمة، أي المستوى الصوتي لها ومخارج الحروف بين الإظهار والإخفاء، والإدغام والإشمام، والتفخيم والترقيق والمد والقصر والإمالة والتحقيق والتليين أو التسهيل فكل هذه الاختلافات التي تنتج عن أدائه في النطق ولا تخرجه عن رسمه وصورته وعن أن يكون لفظا واحدا هي من اللهجات.

أما قولنا اللسان، فمعناه اللغة، قال ابن منظور في *اللسان*(لسن) ابن سيده: واللسان اللغة، مؤنثة لاغير وقال «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه، أي بلغة قومه.»

(٢) شوقي ضيف، *العصر الجاهلي*، ط٦ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٠م)، ص١١٧.

هذا الشكل النهائي الناضج للفصحى العربية ظل مثار جدل واختلاف بين كثير من الباحثين المحدثين من عرب ومستشرقين ممن كتبوا في هذا الموضوع ، ومرد ذلك كله إلى سؤال رئيس يقول : هل الفصحى بشكلها النهائي هذا كانت لغة لقبيلة بعينها استطاعت أن تفرضها على سائر القبائل الأخرى التي كانت تضرب في كل أنحاء جزيرة العرب؟ أم هي لغة لمجموعة قبائل بعينها؟ أم هي المختار من فصيح لغات القبائل العربية كلها؟ فإذا كان الأمر قد تم بأحد هذه الوجوه الثلاثة فكيف تم؟ ومتى كان ذلك؟ وأين؟

انطلق القدماء في بحث هذه القضية من منطلق ديني بحت تقريبا إذ انصب جهدهم على بيان خصائص الفصحى بوصفها اللسان العربي المبين الذي نزل به القرآن الكريم ، وصولا إلى معالجة قضية الإعجاز القرآني الكريم . ولهم في ذلك جملة من الآراء تشكل في مجموعها الإطار العام لنظريتهم في نشوء الفصحى وتكونها وخصائصها بصورة عامة .

أما المحدثون فقد أضافوا إلى اهتمام القدماء اهتمامات أخرى، لعل أظهرها ـ فيما يتصل بهذه الدراسة ـ البحث في لغة الشعر الجاهلي وأوليَّته .

في ضوء ما تقدم ـ على إيجازه ـ فإن هذه الدراسة تهدف إلى تحقيق الأمور التالية :
أولا : عرض نظرية المحدثين من العرب .
ثانيا : عرض نظرية القدماء .
ثالثا : الموازنة بين النظريتين .
رابعا : الاستفادة من نتائج الدراسة في مناقشة قضيتين : قضية الإعجاز في القرآن الكريم ، وقضية لغة الشعر الجاهلي وأوليَّته .

أولا : نظرية المحدثين من العرب

يعد الدكتور طه حسين من أوائل المحدثين الذين تعرضوا لقضية الفصحى وقد بنى نظريته في نشوئها وانتشارها على أنها لغة قريش الخاصة ثم انتهى إلى جملة من الأسئلة حولها ساقها على النحو التالي : فهو يقول : «فالمسألة إذن هي أن نعلم : أسادت لغة قريش

ولهجتها في البلاد العربية، وأخضعت العرب لسلطانها في الشعر والنثر قبل الإسلام أم بعده؟ أما نحن فنتوسط ونقول ـ ما زال الكلام للدكتور طه حسين ـ إنها قبيل الإسلام، حين عظم شأن قريش، وحين أخذت مكة تستحيل إلى وحدة سياسية مستقلة مقاومة للسياسة الأجنبية التي كانت تتسلط على أطراف الجزيرة العربية ولكن سيادة لغة قريش قبيل الإسلام لم تكن شيئا يذكر ولم تكد تتجاوز الحجاز.»(٣)

ويقوده هذا الافتراض الذي يسلم به بدءا إلى القول: «ستقول: ولكن هذه اللغة قد كانت تفهم في غير قريش، من قبائل الحجاز ونجد، ومن هذه القبائل المضري كقيس وتميم، ومنها اليمني كخزاعة والأوس والخزرج. . . ومع هذا فقد قلنا: إن لغة قريش سادت قبيل الإسلام، ونحن إن فكرنا عرفنا أن سيادة اللغات إنما تتصل عادة بالسيادة السياسية والاقتصادية، فلنبحث عن البيئات الممتازة من الوجهة السياسية والاقتصادية في شمال البلاد العربية قبيل الإسلام.»(٤)

ويمضي الدكتور طه حسين في البحث عن هذه البيئة التي افترض فيها علو شأنها في السياسة والاقتصاد حتى يتسنى لها فرض لغتها على سائر (البلاد العربية) كما ذكر، وهو إنما يجتهد في أن يجعل ذلك لقريش خاصة، ولكنه يصطدم بوجود بيئات أخرى في شمال الجزيرة العربية ـ بعد أن استبعد البلاد الجنوبية جملة ـ تعد من البيئات الممتازة من الوجهة السياسية والاقتصادية كبيئة الغساسنة في الأطراف الشمالية وبيئة الحيرة في الأطراف الشرقية، ولكن الدكتور طه حسين يستبعد هاتين البيئتين ويعزو ذلك «لوقوعهما في أطراف جزيرة العرب من ناحية ولأن المناذرة والغساسنة لم تكن بيئاتهم بيئات عربية خالصة، إنما كانت بيئات مختلطة، أقرب ما تكون إلى الأعجمية منها إلى أي شيء آخر.»(٥)

ونراه بعد أن استبعد بيئتي المناذرة والغساسنة يستعرض بيئات أربع أخرى. يستبعد منها ثلاثا هي بيئة «كندة» بقوله: «إنها بيئة يمنية، ثم إن سيادتهم لم تطل بما يسمح لها أن

---

(٣) طه حسين، *في الأدب الجاهلي* (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٨م)، ص١٠٥.

(٤) حسين، *الأدب*، ص ١٠٦.

(٥) حسين، *الأدب*، ص ص ٩٠، ٩١.

تسلط سلطانها السياسي والاقتصادي والديني على شمال البلاد العربية. » ثم يستبعد بيئة «الطائف» بقوله: «كان لها شأن من السلطان الاقتصادي ولكنها لم تكن تداني البيئة المكية» ثم يستبعد بيئة «شمال الحجاز» للسبب نفسه الذي وضعه بين يدي بيئة الطائف، حتى يصل إلى البيئة التي يراها أهلا لذلك السلطان السياسي والاقتصادي والديني الذي مكنها من فرض لغتها الخاصة على «البلاد العربية» فيراها «بيئة قرشية في مكة» فيقول: «كان لها سلطان سياسي حقيقي، ولكنه قوي في مكة وما حولها، وهذا السلطان السياسي كان يعتز بسلطان اقتصادي عظيم، فقد كان مقدار عظيم جدا من التجارة في يد قريش، وكان هذا السلطان يعتز بسلطان ديني قوي، مصدره الكعبة التي كان يحج إليها أهل الحجاز، وغير أهل الحجاز من عرب الشمال. » ثم يقول: «*اجتمع لقريش إذن سلطان سياسي واقتصادي وديني وأخلق بمن يجتمع له هذا السلطان أن يفرض لغته على من حوله من أهل البادية.* »(٦) ثم ينتهي إلى القول: «*لغة قريش إذن هي هذه اللغة الفصحى التي فرضت على قبائل الحجاز فرضا لا يعتمد على السيف، وإنما يعتمد على المنفعة وتبادل الحاجات الدينية والسياسية والاقتصادية.* »(٧)

حتى إذا استقر رأي الدكتور طه حسين على هذا التصور مضى يعالج جوهر القضية بقوله: «ولكن ما أصل لغة قريش؟ وكيف نشأت؟ وكيف تطورت في لفظها ومادتها وآدابها حتى انتهت إلى هذا الشكل الذي تراه في القرآن الكريم؟ كل هذه مسائل لا سبيل إلى الإجابة عنها. »(٨)

وقد ترك الدكتور طه حسين هذه الأسئلة كلها من غير إجابة متمنيا أن يصل البحث فيها إلى تاريخ علمي محقق لهذه الفصحى التي هي لغة قريش خاصة.

هذه هي خلاصة رأي الدكتور طه حسين حول قضية الفصحى وهي كما نرى تنتهي

---

(٦) انظر رأيه هذا في ص ٨٤ من المرجع السابق نفسه.

(٧) حسين، *الأدب*، ص ١٠٧.

(٨) حسين، *الأدب*، ص ١٠٧.

إلى أن الفصحى هي لغة قريش الخاصة وأن قريشا استطاعت أن تفرض لغتها على «قبائل الحجاز فرضا» بما كانت تتمتع به من سلطان سياسي يعتز بسلطان اقتصادي وسلطان ديني.

أما مناقشة هذا الرأي فأمر نرى أن نؤخره قليلا حتى تجتمع إليه آراء أخرى تكاد تذهب مذهبه ولكنا لا نغادره قبل أن نبدي ملاحظة مهمة بدت لنا عندما ذكر الدكتور طه حسين وفادات «أهل الحجاز وغير أهل الحجاز من عرب الشمال» إلى مكة للحج ولم يذكر شيئا عن وفادات قبائل عرب الجنوب للغرض نفسه فضلا على التجارة. وهو أمر مقرر في المصادر التاريخية والأدبية أيضا، ولا نشك في أن الدكتور طه حسين يعرف مثلا ما أورده أبو العلاء المعري في *لزومياته* من نماذج لتلبيات الحجيج من قبائل اليمن مثل كنده وحمير وهمدان وبلحارث بن كعب. وقد يفسر هذا الأمر أن الدكتور طه حسين افترض ابتداء عند مناقشة قضية الفصحى أنها لابد أن تكون في بيئة من بيئات الشمال كما تقدم، ولذا استبعد كل تأثير لبيئات جنوب الجزيرة في اليمن. ومن هنا استبعد متعمدا ذكر وفادات قبائل اليمن على مكة للحجيج والتجارة لأن مثل هذه الوفادات التجارية والدينية اعتمدها كثير من الباحثين بوصفها منافذ لدخول الفصحى إلى اليمن ومزاحمتها الحميرية وبخاصة في القبائل التي كانت منازلها شمالي صنعاء، بل أن القدماء وبعض المحدثين عدوا مثل هذه الوفادات الدينية والتجارية من المصادر التي أثرت الفصحى بكثير من ألفاظ لغات قبائل الجنوب التي تعزى لهم بصفة خاصة. فالدكتور شوقي ضيف يرى أن العربية الفصحى منذ أن تم لها اكتمالها في العصر الجاهلي (١٥٠ ـ ٢٠٠) قبل الإسلام «أخذت تغزو العربية الجنوبية وتنتصر عليها انتصارات تختلف قربا فهي في الجهات القريبة منها تكتسحها اكتساحا، وهي في الجهات البعيدة تؤثر تأثيرا يختلف قوة وضعفا» على أنه ينبغي أن نعترف بأن اليمنيين كانوا في نقوشهم يحافظون على لغتهم القديمة المرتبطة بدينهم وآلهتهم أما في حياتهم اليومية وخاصة في أطرافهم الشمالية فإنهم كانوا يتحدثون بعربيتنا الفصحى.»

وكان الدكتور شوقي ضيف قد خصَّ «الفصحى» بحديث طويل في كتابه *العصر الجاهلي* تحدث فيه عن «نشوء الفصحى» كما تحدث بعد ذلك عن «سيادة اللهجة القرشية» وانتهى من ذلك كله إلى أنه «ليس من السهل تحديد الزمن الذي اتخذت فيه لغتنا العربية

شكلها النهائي الذي تصوره الفصحى» وذكر هذا الشكل النهائي كما أوردتُه له في أول هذا البحث بيد أنه قال إن هذه الفصحى المتكاملة كانت تمثلها نصوص العصر الجاهلي منذ أواخر القرن الخامس الميلادي وأوائل السادس الميلادي، ثم يسأل «فهل تم لها ذلك الشكل النهائي مع ظهور الشعر الجاهلي أو أن ذلك تم في حقب أبعد منه؟»(٩)

حتى إذا انتهى من هذا الجانب التأريخي لنشوء الفصحى مضى يتحدث عن «سيادة اللهجة القرشية» فقدم بين يدي حديثه عرضا لآراء المستشرقين حول هذه القضية انتهى إلى رفضها جملة إذ رأى أن جملة آرائهم «تعتمد على الفرض والحَدْس، وقد أراد أصحابها أن يناقضوا أشد المناقضة ما استقر في نفوس أسلافنا من أن اللهجة الفصحى إنما هي لهجة قريش التي نزل بها القرآن الكريم.»(١٠)

فالدكتور شوقي ضيف يكاد يذهب إلى ما ذهب إليه الدكتور طه حسين في أن الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم إنما هي لهجة قريش الخاصة ولذا فهو يرفض كل آراء المستشرقين التي تحدثت عن نسبة هذه الفصحى إلى قبائل أخرى فيقول «وفي رأينا أن المستشرقين جانبهم التوفيق في الحَدْس والفرض حين رفضوا نظرية العرب في أن الفصحى هي عين اللهجة القرشية»(١١) وهذا ما افترضه أيضا الدكتور طه حسين.

ثم يمضي الدكتور شوقي ضيف بعد هذا ليلتقي مع نظرية الدكتور طه حسين في أن سيادة لهجة ما وشيوعها لابد أن يقترن به حالة سياسية أو روحية أو حضارية تهيىء لها هذا الشيوع والانتشار بحيث تصبح لغة الفكر والشعر للجماعة الكبيرة ويرى أن مثل هذه المستلزمات تعوزنا إذا طلبناها في غير قريش، بينما إذا طلبناها في قريش وجدنا أسبابا كثيرة تعين عليها، وينتهي إلى أن هناك أسبابا دينية واقتصادية أعدت لهجة مكة لتسود اللهجات القبلية في الجاهلية، وقد تداخلت فيها أسباب سياسية. وبذلك كله «*تهيأ للهجة القرشية*

---

(٩) ضيف، *العصر الجاهلي*، ص ١١٧.

(١٠) ضيف، *العصر الجاهلي*، ص ١٣٣.

(١١) ضيف، *العصر الجاهلي*، ص ١٣٣.

أن يعلو سلطانها في الجاهلية اللهجات القبلية المختلفة.»[١٢]، ويعود إلى تأكيد هذا الرأي في موضع آخر فنراه يقول «*وإذن فنحن لا نعدو الواقع إذا قلنا إن لهجة قريش هي الفصحى التي عمت وسادت في الجاهلية لا في الحجاز ونجد فحسب بل في كل القبائل العربية شمالا وغربا وشرقا وفي اليمامة والبحرين وسقطت إلى الجنوب وأخذت تقتحم الأبواب على لغة حمير واليمن...*»[١٣]

هذه خلاصة رأي الدكتور شوقي ضيف في الفصحى وهو يقترب به كثيرا من رأي الدكتور طه حسين فكلاهما جعل الفصحى هي لهجة قريش الخاصة، وكلاهما أعان قريشا على فرض لهجتها بأسباب سياسية وحضارية ودينية، لم تكن لتجتمع في ذلك الزمان إلاّ لها. وإذا كان الدكتور طه حسين قد قيد سيطرة اللهجة القرشية في البيئة الحجازية فقط، فإن الدكتور شوقي ضيف بسط لها هذه السيطرة على سائر أقطار الجزيرة.

في مقابل هذا الرأي نشأ رأي آخر في إطار نظرية المحدثين، لا يرى أن الفصحى هي «لهجة قريش الخاصة» أو «لغة قريش عينها» وأنها استطاعت أن تفرضها على سائر القبائل العربية بما كان لها من سيادة اقتصادية وروحية دينية *وإنما يرى أن الفصحى تمثل لغة مشتركة مختارة من فصيح لغات القبائل*. وأصحاب هذا الرأي يقتربون تماما من الآراء التي تبناها العلماء المسلمون القدماء كما سيأتي بيانها، وقد اخترت أن أعرض رأى اثنين من أصحاب هذا الاتجاه هما: الأستاذ مصطفى صادق الرافعي والأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس، وأبدأ بعرض رأي الرافعي.

يرى الرافعي أن تهذيب اللغة مر بثلاثة أدوار ساقها على النحو التالي:

الدور الأول: ويرى أنه شهد أول تهذيب حقيقي في العربية وأرجعه إلى عهد أبينا إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، والرافعي ينتهي إلى هذه النتيجة بعد أن قدم بين يديها بالقول «والذي عندي أن المراد بانطلاق لسان إسماعيل بالعربية أنه وضع أصلها بما أضاف

---

(١٢) ضيف، *العصر الجاهلي*، ص ١٣٣.

(١٣) ضيف، *العصر الجاهلي*، ص ١٣٤.

إليها من لغة جرهم إلى لغة قومه وبذلك انطلق لسانه من الكلام في مذهب أوسع منحى وأوضح دلالة. »(١٤)

الدور الثاني: التهذيب الثاني للغة وذلك بعد انتشار القبائل من أولاد إسماعيل عليه السلام وتفرقهم في أنحاء الجزيرة «فلما تفرقت القبائل أخذت اللهجات تتنوع والعرب تغلب طبائعهم على حقائق الكلام، وبذلك لابد أن تكون قد تعددت طرق الوضع في اللغة بطول المدة واتساع الاستعمال، وتقليب الكلام على وجوهه المستحدثة. ومن ثم نشأت اللغات الكثيرة التي تشير إلى تاريخ هذا التنوع لأنها مادته الحقيقية. »

ويتصل هذا الجزء من التهذيب الذي حدث في الدور الثاني بجزء آخر متمم له. إذْ كيف تسنى لهذه اللغات الكثيرة أن تتقارب من جديد لتحقق الهدف الرئيس من أدوار تهذيب اللغة وهو إيجاد كيان لغوي واحد يجمع بين كل هذه اللغات المتباعدة، يشير الأستاذ الرافعي إلى هذا التقارب بقوله: «وكانت العرب يأخذ بعضها عن بعض بالمخالطة والمجاورة فربما انتقل لسان العربي عن لغته إلى لغة قبيلة أخرى وربما تداخلت اللغات فنشأت من اللغتين لغة ثالثة. . . ثم نشأ بينهم التنافس في أحكام اللغة والمفاخرة بالبيان وانحراف اللسان عن الشذوذ، وساعدتهم في ذلك مواقعهم وأيامهم وأسواقهم التي يقصدونها للتسوق والبياعات والمنافرة والحكومة وغيرها مما هو من طبيعة المخالطة، وهذا هو الدور الثاني من أدوار تهذيب اللغة. »(١٥)

الدور الثالث: وهو أهم الأدوار التي مر بها تهذيب اللغة نحو الفصحى، ويحصره الرافعي في قريش فهو من عملها وحدها، ويعلل ذلك بوجود الكعبة المشرفة في مكة حيث كانت القبائل تهوي إليها في حجها وعمرتها يقول: «*وكانت تلك القبائل بطبائعها متباينة اللهجات مختلفة الأقيسة المنطقية المودعة في غرائزها*، فكان قريش يسمعون لغاتهم

---

(١٤) مصطفى صادق الرافعي، *تاريخ آداب العرب*، ط٣ (القاهرة: مطبعة الاستقامة، ١٩٥٣م)، مج١، ص٨٩.

(١٥) الرافعي، *تاريخ*، مج١، ص ٩٢.

ويأخذون ما استحسنوه منها فيديرون به ألسنتهم ويجرون على قياسه، ولو كانوا بادين كسائر القبائل، ما فعلوه ولكن نوع الحضارة الذي اكتسبوه من تاريخهم ألان طبائعهم الاجتماعية وكسر صلابتهم، فاتفقت في ذلك حياتهم اللغوية وحياتهم الاجتماعية القائمة بالتجارة وتبادل العروض مع أصناف الناس، فلما اجتمع لهم هذا الأمر ارتفعت لغتهم عن كثير من مستبشع اللغات ومستقبحها وبذلك مرنوا على الانتقاد.»(١٦)

والرافعي بهذا التصور لأدوار اللغة الثلاثة يصدر تماما عن نظرية علمائنا القدماء كما سنبين ذلك فيما بعد إن شاء الله، وبخاصة في حديثه عن الدور الثالث من أدوار تهذيب اللغة وهو الدور الذي نهضت به قريش لإيجاد الفصحى المشتركة.

نحن إذن أمام لسان عربي مشترك، أمام فصيحة مشتركة، لا أمام لهجة قبيلة بعينها استطاعت أن تفرضها على ألسنة قبائل العرب كلها، بما كان لها من سيادة دينية وسياسية واقتصادية. فالرافعي يجعل هذه الأسباب أو بعبارة أدق يجعل السبب الديني الذي حصره في وجود الكعبة المشرفة في مكة من العوامل التي ساعدت على وفادة لغات القبائل على مكة حيث نهضت قريش بعملها في استصفاء الفصيح من هذه اللغات لتديره على لسانها. فكأنما اجتمع على لسانها كل فصيح من لغات القبائل الوافدة. أما كيف كانت تختار هذا الفصيح الخالي من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ فذلك أمر لم تغفل النظرية القديمة عن بيانه وتحديده كما سيأتي في موضعه من هذه الدراسة.

وما دمنا قد وصلنا إلى هذه النقطة التي تمثل قاسما مشتركا بين نظرية المحدثين ونظرية القدماء، فإن الأمر يدعونا إلى أن نورد رأي الدكتور إبراهيم أنيس في كيفية نشوء اللغة المشتركة بصفة عامة يقول: «دلت الملاحظة على أنه حين تقوى الصلة بين أفراد الجماعة اللغوية وتسهل بينهم وسائل الاتصال والارتباط، مادية كانت أم ثقافية، تتكون لهم مع الزمن لغة مشتركة، تقرب بينهم وتعينهم على تفاهم أسرع وأيسر وتقضي لهم مصالحهم

---

(١٦) الرافعي، *تاريخ*، مج١، ص ٩٤.

الدنيوية، ثم قد تصبح بعد ذلك وسيلة للمتعة حين تتخذ للتعبير عن أحاسيسهم وعواطفهم في كل إنتاج أدبي جميل . »(١٧)

ثم يتحدث عن صفات اللغة المشتركة فيرى أن إجماع اللغويين على أن أهم معالم كل لغة مشتركة يمكن أن يلخص في الصفتين التاليتين:

١ ـ أنها مستوى لغوي أرقى من لهجات الخطاب في غالب الأحوال، وهي لذلك يتخذها الناس مقياسا لحسن القول وإجادة الكلام.

٢ ـ أما الصفة الثانية للغة المشتركة فهي التي عبر عنها هنري سويت بقوله: هي *اللغة التي لا يستطيع السامع أن يحكم على المنطقة التي ينتمي إليها المتكلم بها*. (١٨)

فإذا كان هذا حال كل لغة مشتركة تنشأ في العالم فهل يمكن أن نقيس الفصحى العربية بهذا المقياس اللغوي الذي أجمع عليه أهل العلم من المشتغلين بتاريخ اللغات ونشوئها.

الدكتور إبراهيم أنيس قصد إلى هذا تماما حين وضع هذه المقدمة لتكون بين يدي حديثه عن الفصحى بوصفها اللغة العربية المشتركة فهو يختار لهذه اللغة المشتركة بيئة مكة ويرى أنها البيئة التي تصلح لتكون اللغة المشتركة في ظل وجود العامل الديني الذي جعل مكة وما حولها المهد الأول للغة المشتركة ثم العامل الاقتصادي والاجتماعي الذي تهيأ لها في وجود أسواق العرب المشهورة التي كانت تشهد مواسمهم التجارية والأدبية ولا يزال الدكتور إبراهيم أنيس يتحدث عن هذه العوامل التي هيأت البيئة المكية وما حولها لنشوء اللغة العربية المشتركة (الفصحى) حتى ينتهي إلى القول:

«وهكذا نرى أن بيئة مكة قد هُيئت لها ظروف وفرص بعضها ديني وبعضها اقتصادي واجتماعي مما ساعدهم أن تصبح المركز الذي تطلعت إليه القبائل، وشدت إليه الرحال

---

(١٧) إبراهيم أنيس، «مستقبل اللغة المشتركة، » *معهد الدراسات العربية العالية*، القاهرة، ١٩٦٠م، ص٨.

(١٨) انظر: أنيس، «مستقبل، » ص ٨ وذكر مصدره.

قرونا عدة قبل الإسلام فكان أن نشأت فيها لغة مشتركة أسست في كثير من صفاتها على لهجة مكة ولكنها استمدت من صفات اللهجات التي كانت تفد إليها . . . ثم نمت هذه اللغة مع الزمن وتبلورت مسائلها وأصبح لها كيان مستقل، ثم انتشرت مع القبائل والوفود حتى انتظمت جميع أنحاء شبه الجزيرة وأصبحت اللغة التي ينظم بها الشعراء ويخطب بها الخطباء والتي تصطنع في مجال جدي من مجالات القول في اللغة الأدبية النموذجية التي كانت محل الإعجاب والتقدير ولذلك نزل بها القرآن .» وينتهي الدكتور أنيس إلى تقرير حقيقة يجري بها على سنن القدماء في تصورهم للغة التي نزل بها القرآن وينقض في الوقت نفسه رأي الدكتور طه حسين من أساسه فيقول بناء ما قدم : «*فلا يمثل القرآن لغة قريش وحدها كما يتردد أحيانا في بعض الكتب والروايات ، وإنما يمثل اللغة المشتركة بين العرب جميعا لغة الأدب من شعر وخطابة وكتابة .*» (١٩)

هذا التصور للغة المشتركة التي هي الفصحى العربية كما قدمه الدكتور إبراهيم أنيس يلتقي فيه تماما مع تصور علمائنا القدماء الذين وضعوا إطارا متكاملا لهذا التصور من خلال جملة نصوص وآراء تمثل في مجموعها نظريتهم في نشوء هذه اللغة المشتركة الفصيحة وتكونها ، بل إن القدماء كانوا أبعد إدراكا وأوسع مدى في بسط نظريتهم من المحدثين حين تحدثوا عن الكيفية التي تم بها تكون الفصحى ، فهم بسطوا الحديث في اختلاف اللغات بين القبائل في اللفظ الواحد، ثم بسطوا الحديث بعد ذلك من خلال النماذج التي أوردوها والشواهد التي استحضروها عن معيار الفصاحة الذي كان يتم به اختيار اللفظ الفصيح .

إن القدماء والمحدثين على اتفاق تام في شيء واحد وهو أن قريشا هي التي نهضت بأمر اختيار الفصيح وذلك بحكم وجودها في البيئة المكية التي كانت مهدا لألسنة مختلف القبائل العربية على اختلاف منازلها وديارها وبلادها ، ففيها الكعبة المشرفة التي كانوا يحجون إليها، وهي إلى جانب ذلك مركز تجاري متميز بحكم ما كان لقريش من مكانة اجتماعية وحضارية. بيد أننا نتلمس الأسباب التي هيأت للبيئة المكية لأن تكون المكان الذي تختلف

---

(١٩) أنيس، «مستقبل،» ص٨.

إليه كل القبائل العربية دون استثناء، المكان الذي تختلف إليه كل ألسنة القبائل ولغاتها فتجتمع في مواسم قد تطول وقد تقصر. وفي رأينا أن السبب الديني هو العامل الرئيس الذي هيأ للبيئة المكية أن تكون ذلك المكان، فهي وحدها دون سائر البيئات الكبرى في الجزيرة التي تملك هذا السبب الرئيس، والذي لا تملك كل قبيلة في أرجاء الجزيرة إلا أن تربط نفسها به. أما بقية العوامل الأخرى السياسية والاقتصادية، فهي أسباب مكملة إذ إن غير بيئة من بيئات العرب الأخرى كان لها مثل هذا السلطان السياسي والحضاري وهي في ذلك ربما فاقت قريشا نفسها، ففي الجنوب كانت حضارة اليمن تتألق سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وفي الشمال كانت إمارة الغساسنة قد بلغت في ذلك الأمر شأوا بعيدا وفي الشرق كانت الحيرة منارة أخرى من منارات التحضر فضلا عن سلطانها السياسي والعسكري.

على أية حال فقد بدا من عرضنا لآراء المحدثين في هذه القضية أنهم ينقسمون إلى فريقين: فريق يرى أن الفصحى هي لهجة قريش الخاصة استطاعت أن تفرضها على قبائل الحجاز بما كان لها من سلطان ديني وسياسي واقتصادي (طه حسين) أو على كل القبائل العربية دون استثناء سواء التي في الشمال أو التي في الجنوب (د. شوقي ضيف)؛ أما الفريق الثاني فيرى أن هذه الفصحى تمثل المختار من فصيح لغات العرب وألسنتهم فهي اللغة المشتركة التي تكونت في البيئة المكية ونهضت بها قريش (الرافعي وإبراهيم أنيس).

بقي أن أشير إلى أن آراء المستشرقين في هذه القضية قد لخصها في جملتها أستاذنا الدكتور شوقي ضيف في كتابه *العصر الجاهلي* وناقشها مناقشة انتهت به إلى رفضها جملة لأنها تقوم في رأيه على الحَدْس والفرض فمن أراد أن يقف على هذه الآراء فليرجع إليها حيث أشرت(٢٠) وقد جمعها من قبل ولخصها الدكتور جواد علي فهي في الجزء الثامن من كتابه *المفصل*.

---

(٢٠) ضيف، *العصر الجاهلي*، ص ١٣١ وما بعدها.

ثانيا: نظرية القدماء

حسبنا ونحن نتحدث عن نظرية القدماء أن نقدم بين يديها بحقيقة لا مشاحة فيها وهي أن الله سبحانه وتعالى أنزل كتابه الكريم بلسان عربي مبين، وأن هذا اللسان العربي المبين هو الفصحى التي كانت تمثل اللغة المشتركة بين قبائل العرب جميعا. والتي نرجح ترجيحا يصل بنا إلى درجة اليقين بأن هذه اللغة الفصحى كانت قد استقرت وتكاملت قبل أن يجيء الله بالإسلام بزمن بعيد لا نملك تحديده على وجه اليقين ولكنا نبتعد به نحو قرنين من الزمان لا لشيء إلا لأننا لا نملك من نصوص الشعر الجاهلي الذي أنشأه أصحابه بهذه الفصحى ما أجمع مؤرخو الأدب على أنها وجدت قبل الإسلام بنحو ١٥٠ ـ ٢٠٠ سنة، وهي أشعار الرواد الذين مثلوا الأولية الناضجة للشعر الجاهلي مثل امرىء القيس ومهلهل.

بل نحن نذهب مع هذا الرأي من منطلق آخر، وهو أنه كان لابد لهذه الفصحى أن تكون قد بلغت مرحلة التكامل قبل الإسلام بفترة تسمح لأهلها بأن ينشئوا بها أدبا، ويظهروا في استعمالها براعة يتميزون بها، حتى تصبح من أخص خصائصهم، وحتى إذا جاء الله بالإسلام، وأنزل كتابه الكريم بهذه اللغة، وضمنه هذا التحدي المعجز في استعمال هذه اللغة، بلغ بهذا الأمر غايتين أولاهما أن لغة هذا القرآن الكريم هي اللغة التي يعرفها الناس حق المعرفة على اختلاف منازلهم وطبقاتهم، فليس لأحد من الناس أن يعرض عن الدخول في هذا الدين بحجة عدم فهمه للغة كتابه الكريم، ولذا لم نسمع عن قبيلة من قبائل العرب في أي بيئة من بيئاتهم من احتج بعدم فهمه للغة القرآن الكريم. وكأنما أراد الله سبحانه وتعالى أن يهيىء الجزيرة كلها على لسان واحد، به أنزل كتابه الكريم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾(٢١) وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾، (٢٢) وقال تعالى أيضا: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾(٢٣) ومن ذلك قوله تعالى أيضا: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا

---

(٢١) سورة إبراهيم، الآية ٤.

(٢٢) سورة الشعراء، الآيات ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥.

(٢٣) سورة النحل، الآية ١٠٣.

كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾. (٢٤) وأختم هذه الطائفة من الآيات الكريمة بقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾. (٢٥)

أما الغاية الثانية التي تتحقق من ضرورة أن يكون اكتمال هذه الفصحى قد تم بزمن بعيد قبل أن يجيء الله بالإسلام فغاية تتصل بقضية الإعجاز القرآني، وهو الأمر الذي وعدت بالحديث عنه ضمن نتائج هذه الدراسة ولكني أشير هنا إلى أن قضية الإعجاز القرآني تفرض علينا فرضا أن نسلم بأن اكتمال الفصحى كان قد تم قبل أن يجيء الله بالإسلام بفترة زمنية تسمح للناس في أثنائها من إظهار براعة عالية في استعمال هذه اللغة، براعة تأتي في قمة ما يتميزون به حتى إذا أنزل الله سبحانه وتعالى كتابه الكريم بهذا اللسان العربي المبين جعل معجزته من جنس براعة القوم يومئذ.

النظرية القديمة استلهمت هذه الحقيقة واعتقدتها وجاءت أقوال العلماء وآراؤهم تؤيدها تأييدا كاملا وتنطلق في تصورها للفصحى من أنها المختار من فصيح لغات القبائل ولدينا في إطار هذه النظرية العديد من الأقوال التي تؤكدها وقد رأيت أن أبدأ بالنصوص التي توضح تصور القدماء لنشوء الفصحى وتكونها في البيئة المكية حيث نهضت قريش بدورها الكبير في اختيار الفصيح من لغات القبائل الوافدة إليها في مواسم الحج أو التجارة. وهذه النصوص أوردها على النحو التالي:

النص الأول: وهو نص أورده ابن فارس في كتابه الموسوم بـ *الصاحبي* يقول: «*وكانت قريش مع فصاحتها وحُسْن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيّروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب.*» (٢٦)

---

(٢٤) سورة الأحقاف، الآية ١٢.

(٢٥) سورة مريم، الآية ٩٧.

(٢٦) محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، *تفسير الطبري*، تحقيق محمود محمد شاكر (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٩م)، مج١، ص٢١ من مقدمة الطبري نفسه.

يتعزز هذا النص بنص آخر نقله السيوطي للفارابي عن كتابه *الألفاظ والحروف* وهو النص الثاني.

النص الثاني: «*كانت قريش أجود العرب انتقادا للأفصح من الألفاظ وأسهلها عند النطق وأحسنها مسموعا وأبينها إبانة عما في النفس.*»(٢٧)

وفضل هذا النص لا يقف عند القول بأن قريشا كانت تختار الفصيح من لغات العرب وإنما يتجاوز ذلك إلى إقرار مقياس لاختيار هذا الفصيح، فاللفظ لا يعد فصيحا إلا بعد أن يخضع «للانتقاد» وفق معيار مقرر إذ لابد أن يكون سهلا في النطق حسنا في السمع، معبرا بوضوح عما في النفس.

النص الثالث: جاء في *لسان العرب* تحت مادة (عرب) قول قتادة «*كانت قريش تجتبي*، أي تختار، أفضل لغات العرب حتى صار أفضل لغاتها لغتها فنزل القرآن بها.»(٢٨)

---

(٢٧) جلال الدين السيوطي، *المزهر في علوم اللغة* (القاهرة: مطبعة بولاق، د.ت)، مج١، ص٢١١. والسيوطي يورد نموذجا لمثل هذا الأمر ينقله عن ابن فارس وهو مما يقع في اللفظ الواحد من وجوه الاختلاف يقول «ومنها الاختلاف في الكلمة فقد يقع في ثلاث لغات نحو الزُّجاج الزِّجاج والزَّجاج.

وهو الحديدة التي تركب في أسفل الرمح، قال زهير بن أبي سُلمى:

ومن يعص أطراف الزِّجاج فإنه   يطيع العوالي ركبت كل لهذم

فالفصيح (الزَّجاج) والباقي لغة فيه.

وقد يقع في الكلمة أربع لغات نحو: الصِّداق والصَّداق والصُّدقة والصَّدَقة (فالفصيح الصَّداق بفتح الصاد وما عداه لغة فيه) ويكون في خمس لغات نحو: الشَّمال، والشمل، والشمأل، والشيمل، والشمل. (أما في *اللسان* فقال والشَمال: الريح التي تهب من ناحية القطب، وفيه خمس لغات شَمْل بالتسكين. وشَمَل بالتحريك، شَمَال وشَمْأل مهموز، وشَأْمِل مقلوب وربما جاء بتشديد اللام) والفصيح من هذا كله أن نقول: ريح شَمال وما عداه لغة فيه وبإحداها جاء بيت امرىء القيس (لما نسجتها من جنوب وشمأل) ويكون في ست لغات نحو قُسْطاس، وقَسْطاس، وقِسْطاس، وقِسّاط، وقستاط، وقساط (أورد منها في *اللسان* لغتين فقط، قال: القِسْطاس ويقال قُسطاس وقِسْطاس، والفصيح من هذا «قِسْطاس» وما عداه لغة فيه... وهكذا.

(٢٨) ابن منظور، جمال الدين، أبوالفضل محمد بن مكرم (ت ٤١١هـ)، *لسان العرب*، (القاهرة: =

النص الرابع: وهو ما نقله السيوطي في *الإتقان* عن أبي عبيد القاسم بن سلام أنه قال «بعضه ـ أراد القرآن الكريم ـ *بلغة قريش* وبعضه بلغة هذيل وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة اليمن وغيرهم، قال وبعض القبائل أسعد به من بعض وأكثر نصيبا.»(٢٩)

وفضل هذا النص أيضا يتعدى القول بأن القرآن الكريم نزل بهذا اللسان العربي المبين الذي كان يشمل الفصيح من لغات القبائل إلى القول بأن نصيب الفصيح من لغات هذه القبائل كان يتفاوت قلة وكثرة فبعضها أخذ عنها الكثير من الألفاظ وفق معيار فصاحة الألفاظ الذي تقدم في النص الثاني وبعضها لم يؤخذ عنها إلا القليل. ومن هذا وذاك نشأ اللسان العربي الفصيح الذي نزل به القرآن الكريم فكان لكل قبيلة من لغته نصيب ولعل هذا يفسر قول أبي عبيد «وبعض القبائل أسعد به من بعض وأكثر نصيبا.»

ولما كانت لغة القرآن الكريم هي هذه الفصحى التي تكونت من فصيح لغات القبائل كما صرحت بذلك النصوص المتقدمة فإن النص التالي يكاد يحدد جمهرة القبائل التي شاركت بالفصيح من لغاتها في تكوين هذه اللغة المشتركة التي نزل بها القرآن الكريم.

النص الخامس: وهو ما ذكره أبوبكر الواسطي في كتابه الموسوم بـ «*الإرشاد في القراءات العشر*» يقول «وفي القرآن من اللغات خمسون لغة: لغة قريش وهذيل وكنانة وخثعم والخزرج وأشعر ونمير وقيس عيلان وجرهم، واليمن وأزد شنوءة وكندة وتميم وحمير ومدين ولخم وسعد العشيرة وحضرموت وسدوس والعمالقة وأنمار وغسان ومذحج وخزاعة وغطفان وسبأ وعمان وبنوحنيفة وثعلب وطيىء وعامر بن صعصعة وأوس ومزينة وثقيف وجذام وبلي وعذرة وهوازن والنمر واليمامة. . .»(٣٠) ومضى الواسطي يعدد هذه القبائل حتى أتى على ذكر لغات غير العرب ثم استطرد في ذكر نماذج من لغات هذه القبائل التي وقعت في لغة القرآن الكريم.

= مطبعة بولاق، ١٣٠٨هـ)، مادة عرب.

(٢٩) السيوطي، *الاتقان في علوم القرآن*، ط٢ (القاهرة: مطبعة الحلبي، ١٩٥١م)، مج١، ص٤٧.

(٣٠) أبوبكر الواسطي، *الارشاد في القراءات العشر*؛ وانظر: السيوطي، *الاتقان*، مج١، ص ١٣٦.

النص السادس: وهو نص يرتبط بالنص السابق عليه ويكاد يوافقه تماما أورده ابن فارس في *الصاحبي* ونقله السيوطي في *الاتقان*، قال: «وذكر بعض العلماء أن في القرآن أربعين لغة عربية وهي قريش وهذيل وكنانة. . . »(٣١) ومضى يذكر لغات القبائل على نحو ما رأيناه في النص السابق حتى أتى على ذكرها جميعا.

النص السابع: وهو قول الفراء، والفراء من أئمة اللغة والنحو قال فيما رواه عنه السيوطي في *المزهر*: «*وكانت العرب تحضر المواسم في كل عام، وتحج إلى البيت في الجاهلية، وقريش يسمعون لغات العرب، فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به، فصاروا بذلك أفصح العرب وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ.*»(٣٢)

النص الثامن: عن ثعلب، وكأنه يفسر به قول الفراء المتقدم في النص السابق، «وخلت لغتهم - أي لغة قريش - من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ»، فقال ثعلب: «ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم وتلتلة بهراء وكشكشة هوازن وتضجع قريش وعجرفية ضبة.»(٣٣)

---

(٣١) أبوالحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ)، *الصاحبي*، تحقيق السيد أحمد صقر (القاهرة: مطبعة الحلبي، ١٩٧٧م)، ص٥٨؛ وانظر: السيوطي، *الاتقان*، مج٢، ص١٠٢.

(٣٢) السيوطي، *المزهر*، ص ١٣٣.

(٣٣) انظر: السيوطي، *المزهر*، ص ١٢٨؛ والنص أوردته مصادر أخرى بشيء من التقديم والتأخير فهو في: أبوالعباس أحمد بن يحيى بن ثعلب (٢٩١هـ)، *مجالس ثعلب*، تحقيق عبدالسلام هارون (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٩م)، ص٨١؛ أبوالفتح عثمان بن جني (٣٩٢هـ)، *الخصائص*، تحقيق محمد علي النجار (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٥٦م)، ص٤١١؛ ابن فارس، *الصاحبي*، ص٤٤؛ عبدالقادر بن عمر البغدادي (١٠٩٣هـ)، *الخزانة*، (القاهرة: مطبعة بولاق، ١٢٩٩هـ)، مج٤، ص٥٩٥.

والعنعنة: تنسب إلى تميم القبيلة، فيقال عنعنة تميم، وأصله إبدال العين من الهمزة كقولهم (عن) يريدون (أن) وقد شاركهم في هذه الظاهرة قبائل أخرى من العرب، قال الفراء (*اللسان/عنن*) «لغة قريش ومن جاورهم (أن) وتميم وقيس وأسد ومن جاورهم يجعلون ألف أن إذا كانت مفتوحة عينا يقولون: أشهد عنك رسول الله، فإذا كسروا رجعوا إلى الألف.»

التلتلة: وتنسب إلى بهراء القبيلة، فيقال: تلتلة بهراء، وأصله كسرهم تاء تفعلون، يقولون =

وفضل هذا النص يتجاوز هذا المعنى الواضح في عمل قريش في اختيار الفصيح، وطرح ما استبشع من لغات القبائل، وذلك وفق معيار الفصاحة المتقدم في النص الثاني، يتجاوز ذلك إلى معنى رائع متضمن فيه وهو قول ثعلب «وتضجع قريش» فكأن قريشا كانت تطبق معيار اختيار الفصيح حتى على لغتها الخاصة، فهي كما رفضت عنعنة تميم وكشكشة هوازن . . . إلخ رفضت أيضا التضجع في لغتها الخاصة فأخرجته عن مستوى الفصيح ولم تدخله في تلك اللغة المشتركة التي اشترط لها أن تكون فصيحة أي خالية مصفاة من كل شوائب اللغة ومستقبحها ومستبشعها.

= تِعلمون وتِشهدون.

الكشكشة : لغة لربيعة، وفي *الصحاح* لبني أسد، وأصله أن يجعلوا الشين مكان الكاف، وذلك في المؤنث خاصة فيقولون في عليك عليش وفي منك منش وفي بك بش، وأنشد في *اللسان* (كشكش).

فعيناشِ عيناها وجيدُش جيدُها ولكن عظم الساق مِنْشِ رقيق

وفيه تفصيل لمن أراد أن يستزيد (*اللسان/ كشكش*).

الكسكسة : في ربيعة ومضر إذ يجعلون بعد الكاف أو مكانها سينا في المذكر قال في *اللسان*: وكسكسة هوازن : هو أن يزيدوا بعد كاف المؤنث سينا، فيقولوا : أعيتكس ومنكس وهذا في الوقف دون الوصل، وروي عن الأزهري قوله : الكسكسة لغة من لغات العرب تقارب الكشكشة (*اللسان/ كسس*).

التضجع : وجعله ثعلب في قريش، وأصله الإمالة قال في *اللسان* (ضجع) والإضجاع في باب الحركات مثل الإمالة والخفض وكانت تميم وقيس وأسد تميل إمالة الألف، وكان الحجازيون ينطقونها بتفخيم فلا يميلون.

العجرفية : وتنسب إلى ضبة وقد تنسب إلى قيس عامة؛ انظر : ابن فارس، *الصاحبي*، ص٥٨. قال في *اللسان* (عجرف) : عجرفية ضبة أراها تقعرهم في الكلام.

الاستنطاء : لغة لأهل اليمن خاصة في (أعطى) إذ يقولون (انطى) قال في *اللسان*: روى الشعبي أن رسول الله ﷺ قال لرجل انطه كذا وكذا أي أعطه والإنطاء لغة في الإعطاء (انظر: *اللسان*: نطا).

العجعجة : في قضاعة، وهي تحويل الياء جيما مع العين، قال في (*اللسان/ عجج*) والعجعجة في قضاعة كالعنعنة في تميم يحولون الياء جيما مع العين، يقولون : (هذا راعج خرج معج) أي راعي خرج معي وأنشد الراجز:

خالي لقيط وأبو علج المطعمان اللحم بالعشج

هذا يقودنا إلى قول آخر نؤكد به أن اللغة المشتركة الفصيحة لم تكن لهجة قريش الخاصة، فضلا على النص السابق الواضح الدلالة وفضلا على النصوص المتقدمة التي بينت عمل قريش في اختيار الفصيح من لغات القبائل إذ كانت «تَجْتَبِي» ثم «تَنْتَقِد» فضلا على ذلك كله فالنص التالي يضيف تأكيدا آخر.

النص التاسع: وهو ما أورده ابن كثير القرشي في *فضائل القرآن*، قال: «قال أبوعبيد (القاسم بن سلام) بعض اللغات أسعد به من بعض، وقال القاضي الباقلاني: ومعنى قول عثمان (رضى) أنه نزل بلسان قريش أي معظمه ولم يقم دليل على أن جميعه بلغة قريش كله، قال الله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾، ولم يقل قرشيا. قال: واسم العرب يتناول جميع القبائل تناولا واحدا، يعني حجازَها ويَمَنها، وكذا قال الشيخ أبوعمر بن عبدالبر قال: لأن لغة غير قريش موجودة في صحيح القراءات كتحقيق الهمزات فإن قريشا كانت لا تهمز.»(٣٤)

وأحسبني لست في حاجة إلى التعليق على هذا النص، فهو يقطع بأن اللغة الفصحى المشتركة التي نزل بها القرآن الكريم، والتي كانت يومئذ اللغة الفنية العالية، ليست هي لهجة قريش الخاصة، فلهجة قريش الخاصة شيء، والفصحى المشتركة شيء آخر، فكما كان لكل قبيلة لهجتها الخاصة، التي تصطنعها في ديارها، كان لها أيضا هذه الفصحى التي كانت تصطنعها في إنشاء أدبها، في الشعر والخطابة وضروب النثر الأخرى. وشأن قريش في ذلك شأن سائر القبائل العربية يومئذ، ولو كان الأمر غير ذلك لكان ابن كثير وهو القرشي نسبا أحرص الناس على القول بأن هذه الفصحى التي كانت سائدة يومئذ هي لهجة قريش الخاصة.

وأريد هنا أن أرد على الدكتور طه حسين قوله المتقدم(٣٥) بأن بيئة جنوب الجزيرة العربية في اليمن لم يكن لها نصيب من هذه الفصحى، بل أنه نفى وجود أية صلة بين لغة

---

(٣٤) الحافظ، عماد الدين أبو الفدا، إسماعيل بن كثير القرشي (ت ٧٧٤هـ)، *فضائل القرآن*، ط٤ (بيروت: دار الأندلس، ١٩٧٩م)، ص٣٨.

(٣٥) انظر رأيه في كتابه، *في الأدب الجاهلي*، ص ٨٤.

الشمال الفصحى ولغة الجنوب جملة وعلى الرغم من أن أستاذنا الدكتور شوقي ضيف رأى غير ذلك تماما، إذ اندفع بهذه الفصحى فجعلها تقتحم جنوب الجزيرة العربية، وتزاحم الحميرية في عقر دارها لتكون لغة الشعر والأدب بين قبائل اليمن، وبخاصة تلك التي كانت في شمالي صنعاء. (٣٦) على الرغم من ذلك فإن النصوص التي بين أيدينا لا تكتفي بهذا القدر من صلة اليمن بهذه الفصحى بل تجعله مشاركا في صنعها. وهو أمر مقبول حقا، فشأن قبائل اليمن التي كانت تَفِد على مكة للحج والتجارة شأن غيرها من القبائل، وموقف قريش التي كانت تستمع لهؤلاء وهؤلاء وتختار الفصيح من لغاتهم موقف واحد، ولذا لا نعجب حين نرى القدماء يذكرون لأهل اليمن نماذج من الألفاظ اللغوية التي دخلت مستوى الفصيح، وأخذت مكانها في كيان اللغة المشتركة، التي نزل بها القرآن الكريم. من ذلك مثلا ما ورد في النص السادس في هذه الدراسة حيث ذكر أبوبكر الواسطي فيما ذكر من لغات القبائل (الخزرج واليمن وأزد شنوءة وكندة وحمير ومذحج وسبأ وطيىء (قبيلة يمنية سكنت في الشمال) فكل هذه قبائل يمنية استطاع العلماء القدماء أن يثبتوا مشاركتها اللغوية في الفصحى المشتركة وهم قدموا بين يدي هذه المشاركة نماذج لغوية مقررة في لغة قبائل اليمن خاصة، ونصوا على ذلك صراحة، وهذا النص يعتز بنص آخر ذكر القبائل اليمنية نفسها هو النص السابع في هذه الدراسة.

بل إن نصوصا أخرى أوردت نماذج من هذه المشاركة لأهل اليمن في بناء الفصحى، فقد عقد السيوطي فصلا بعنوان «فيما وقع بغير لغة الحجاز» وأراد القرآن. وذكر مع كل قبيلة ألفاظها فكان أن ذكر لقبائل يَمَنِية كثيرة. (٣٧)

وفي إطار النص العاشر الخاص بلغة أهل اليمن، نذكر أيضا ما روي عن أبي عبيد القاسم بن سلام وأبي العباس المبرد من أن عرب اليمن من القبائل التي نزل القرآن بلغتها.

---

(٣٦) انظر ما يتبع الهامش رقم (١٢).

(٣٧) انظره مفصلا في السيوطي، كتاب *الاتقان*، مج٢، ص ١٣٣، فهو الباب السابع والثلاثون «فيما وقع فيه بغير لغة الحجاز.»

وقد علق القاضي عبدالحق وهو الذي أورد الخبر فقال «وذلك عندي إنما هو فيما استعملته عرب الحجاز من لغة اليمن كالعَرِم والفتاح.»(٣٨)

هذا النص وتعليقه أيضا يدلان بصورة واضحة على أمر هو ما تسعى هذه الدراسة إلى تأكيده، وهو أن المرحلة التي تم فيها تكون الفصحى شاركت فيها كل القبائل العربية وبخاصة تلك التي عرفت لها وفادات مستمرة على البيئة المكية للحج أو التجارة، فكان أهل الحجاز يستصفون من لغات هذه القبائل الفصيح منها وفق معيار تقدم ذكره في النص الثاني، ثم لا يلبثون أن يديروا ألسنتهم به، فيكون بذلك قد اكتسب صفة الفصيح من لغات القبائل، ودخل إطار اللغة المشتركة. حتى إذا نزل القرآن بهذه اللغة المصفاة الفصيحة، تضمن كثيرا من لغات تلك القبائل، فكانت كما وصفها أبوعبيد «أسعد به من بعض وأكثر نصيبا.»

وإلى هذا يذهب الزرقاني، وهو من المحدثين الذين أخذوا بمذهب القدماء في تكوّن الفصحى، فقال: «إن الوجوه السبعة التي نزل بها القرآن واقعة كلها في لغة قريش، ذلك أن قريشا كان أن داوروا بينهم لغات العرب جميعا وتداولوها، وأخذوا ما استملحوه من هؤلاء وهؤلاء في الأسواق العربية ومواسمها وأيامها ووقائعها وحجها وعمرتها، ثم استعملوه وأذاعوه، بعد أن هذبوه وصقلوه وبهذا كانت لغة قريش مجمع لغات مختارة منتقاة من بين لغات القبائل كافة.»(٣٩)

وهذا النص يوافق نظرية القدماء كما تقدمت في نصوصهم موافقة تامة بل هو يصدر عن حوضها فينهل من منهلها.

---

(٣٨) آرثر جفري، *مقدمتان في علوم القرآن*، وهما مقدمة *المباني*، ومقدمة *ابن عطية*، جمع آرثر جفري، تصحيح عبدالله إسماعيل الصاوي، ط٢ (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٧٢م)، ص٢٦٩.

(٣٩) محمد عبدالعظيم الزرقاني، *مناهل العرفان في علوم القرآن* (القاهرة: مطبعة الحلبي، د.ت)، ص١٨٣.

النص الحادي عشر: أورده السيوطي في *الاتقان* بعد أن أورد قول ابن قتيبة «لم ينزل القرآن إلا بلغة قريش» واحتج بالآية الكريمة ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾ فتحدث السيوطي عن وقوع لغات القبائل في القرآن الكريم فقال: «وأقوى ما رأيته من الوقوع وهو اختياري ما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن أبي ميسرة التابعي الجليل قال: في القرآن من كل لسان، وروى مثله سعيد بن جبير ووهب بن منبه. . . حتى قال فاختير له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالا، ثم رأيت ابن النقيب صرح بذلك فقال: من خصائص القرآن على سائر كتب الله المنزلة أنها نزلت بلغة القوم الذين أنزلت عليهم، لم ينزل بها شيء بلغة غيرهم، والقرآن احتوى على جميع لغات العرب.»(٤٠)

النص الثاني عشر: أما الطبري، فعقد فصلا خاصا جعله في مقدمة كتابه الكبير في تفسير القرآن وجعل له عنوانا هو «القول في اللغة التي نزل بها القرآن من لغات العرب» قال: «وقد دللنا على صحة القول بما فيه الكفاية لمن وفق لفهمه على أن الله جل ثناؤه أنزل جميع القرآن بلسان العرب دون غيرها من ألسن سائر أجناس الأمم، وعلى فساد قول من زعم أن منه ما ليس بلسان العرب ولغاتها. فنقول الآن - إذا كان ذلك صحيحا - في الدلالة عليه فبأي ألسن العرب نزل؟ أبألسنها جميعا أم بألسن بعضها؟ إذا كانت العرب وإن جمع جميعها اسم أنهم عرب، فهم مختلفو الألسن بالبيان متباينو المنطق والكلام، وإذا كان ذلك كذلك وكان الله جل ذكره قد أخبر عبادَهُ أنه قد جعل القرآن عربيا وأنه أنزل بلسان عربي مبين ثم كان ظاهره محتملا خصوصا وعموما، لم يكن لنا السبيل إلى العلم بما عنى الله تعالى ذكره من خصوصه وعمومه إلا بيان من جعل إليه بيان القرآن وهو رسول الله ﷺ.»(٤١)

ويعود ليؤكد هذا القول في موضع آخر من مقدمة تفسيره فيقول «صح وثبت أن الذي نزل به القرآن من ألسن العرب البعض منها دون الجميع.»(٤٢)

---

(٤٠) السيوطي، *الاتقان*، مج١، ص ١٣٦.

(٤١) الطبري، *التفسير*، مج١، ص ٢١، من مقدمة الطبري نفسه.

(٤٢) الطبري، *التفسير*، مج١، ص ٤٦.

كل هذه النصوص التي قدمنا تكاد تجتمع على أمر واحد وهو أن هذه اللغة التي أطلق عليها اللغة الفصحى والتي اتفق على أن القرآن الكريم نزل بها، هذه اللغة لم تكن لهجة قريش الخاصة وإنما كانت لسان العرب جميعا لكل قبيلة منها نصيب قل أو كثر.

كما تتفق هذه النصوص على أمر ثان وهو أن هذه اللغة تَمَّ تكوُّنها في البيئة المكية، لأنها البيئة التي توافرت لها أسباب النهوض بهذا الأمر دون غيرها من البيئات العربية. وأهم هذه الأسباب على الإطلاق، بل هو رأسها، السبب الديني لوجود الكعبة المشرفة في مكة فإليها كانت تهوي قبائل العرب من كل حدب وصوب، فضلا على أن البيئة المكية كانت مسرحا لمواسم العرب الكبرى في أسواقها المشهورة.

كما تتفق هذه النصوص على أن قريشا هي التي نهضت بأمر *الاختيار والاجتباء والانتقاد* للأفصح من لغات القبائل وفق معيار مقرر في اختيار اللفظ الفصيح ـ انظر النص الثاني ـ فكان ما تصطفيه من الألفاظ تديره على ألسنتها ثم تذيعه في الناس فاجتمع على لسانها كل مختار منتقى من بين لغات القبائل كافة.

كما تتفق هذه النصوص على أمر آخر، وهو أن هذه اللغة الموحدة المشتركة الفصحى هي التي نزل بها القرآن الكريم، ومن هنا فلا عجب أن يضم هذا الكتاب الكريم خمسين لغة من لغات تلك القبائل كما ذكرها الواسطي وابن فارس وغيره، ولا عجب بعد ذلك أن يذكر أبو عبيد القاسم بن سلام أن بعض القبائل كانت أسعد به من بعض وأكثر نصيبا، ثم لا عجب بعد ذلك أيضا أن يصنف هؤلاء العلماء القدماء وهم أصحاب هذه النظرية المتقدمة في نصوصهم العديد من الكتب في لغات القرآن. من ذلك ما ذكره ابن النديم في *الفهرست*[٤٣] اذ ذكر (*لغات القرآن* لهشام الكلبي ـ ت ٢٠٤هـ) و(***اللغات في القرآن*** للأصمعي ـ ت ٢١٣هـ) و(*لغات القرآن* لأبي زيد الأنصاري ـ ت ٢١٥هـ) و(*لغات القرآن* للهيثم بن عدي ـ من رجال الثاني الهجري) و(*لغات القرآن* لابن دريد ـ ت ٣٢١هـ) ونشر الدكتور صلاح الدين المنجد كتاب *لغات القرآن* المنسوب لابن عباس.

---

(٤٣) ابن النديم، *الفهرست*، تحقيق رضا تجدد (طهران: مطبعة دانشكاه، ١٩٧١م)، ص٥٩.

ثالثا: الموازنة بين النظريتين

وواضح تماما أن النظرية القديمة كانت أبعد إدراكا وأقوم منهجا في تصورها لنشوء الفصحى وتكونها من النظرية الحديثة، فالنظرية الحديثة عند الدكتور طه حسين ومن ذهب مذهبه تفترض أن تكون الفصحى هي لهجة قريش الخاصة، وأنها استطاعت أن تفرضها على عرب الحجاز فرضا، أعانها عليه سلطانها الديني الذي كان يعتز بسلطان اقتصادي وآخر سياسي. وهذه النظرية لا تصطدم فقط بالواقع اللغوي في الجزيرة العربية يومئذ، وهو واقع يشهد من خلال نصوص الشعر المبكرة التي وصلت إلينا أن هذه الفصحى كانت قاسما مشتركا بين قبائل العرب كلها التي تسكن منها في الشمال، أو التي تسكن في الجنوب، أو تلك التي كانت في وسط الجزيرة، أو في أطرافها الشرقية يستوي في ذلك الجميع، ولكنها تصطدم بحقائق لا تقوى على مواجهتها لعل أظهرها أنها لا تتوجه مع قضية الإعجاز القرآني كما سيأتي في مناقشاتنا لها لاحقا، ولا تتوجه مع لغة الأدب الموحدة التي وصل الشعر الجاهلي المبكر بها من طرق نثق في صحة روايتها ودقتها، ولا تتوجه مع وجود ظواهر لغوية كثيرة في هذه الفصحى صحت نسبتها إلى كثير من القبائل العربية على اختلاف بيئاتها، كما بينت ذلك النصوص المتقدمة هنا.

أما نظرية القدماء فهي أدق في تصورها لقضية نشوء الفصحى وتكونها، إذ كان القدماء أقرب إلى جوهر المنهج العلمي في تفسير الظاهرة فلم يبنوا آراءهم على «الفرض والحَدْس» وإنما راحوا يفحصون اللغة نفسها فوجدوا أن القرآن الكريم هو أصدق وثيقة لغوية مدونة تمكنهم من دراسة هذه الفصحى التي هي اللسان العربي الموحد يومئذ؛ وقد جاءت آياته الكريمة تؤكد في غير موضع منه على أنه نزل بذلك اللسان كما تقدم هنا وقد بينت النصوص المتقدمة في جملتها بيانا لا لبس فيه أنهم درسوا هذه اللغة لا في مستواها الفصيح فحسب وإنما تشعبت بهم سبل الدَّرْس والبحث إلى ميدان أرحب وأوسع فاتصلوا بلغات القبائل ولهجاتها الخاصة، وراحوا يحصون ما يقع في اللفظ الواحد من وجوه الاختلاف وما يصيبه من وجوه العلل في النطق كالعنعنة والكشكشة والتضجع . . إلخ، وما ذلك إلا ليصلوا إلى المقياس الدقيق في اختيار الأفصح من الألفاظ كما بينه «النص الثاني.»

إن النظرية القديمة ترفض رفضا قاطعا أن تكون الفصحى لهجة قبيلة بعينها حتى لو كانت قريش نفسها، وهي ترفض أيضا أن تكون هذه الفصحى لسانا لمجموعة قبائل بعينها، وهي وإن نصت على بعض قبائل تُعزى إليها الفصحى فما ذلك إلا لأن هذه القبائل كانت أسعد بهذه الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم من قبائل أخرى وأكثر نصيبا.

إننا نطمئن تماما إلى النظرية القديمة في تفسير نشوء الفصحى وتكونها لأنه تفسير لا ينهض به الفرض والحدس وإنما ينهض به منهج علمي دقيق يعتمد البحث في اللغة ذاتها. وقد بينت دراسات القدماء أن هذه الفصحى لا يمكن أن تكون لهجة أو لغة لقبيلة بعينها.

هذا الاطمئنان يقودنا إلى مناقشة قضيتين رئيستين تتصلان اتصالا وثيقا بموضوع نشأة الفصحى وتكونها:

القضية الأولى: الفصحى والإعجاز البياني في القرآن

ردد نفر من المستشرقين أن هذه الفصحى العربية إنما تمَّ لها هذا الاستواء بعد الإسلام لا قبله. ولعل أبرز من قال بهذا الرأي مرجليوت وفولرز. أما مرجليوت فيرى أننا لو افترضنا أن أثر الإسلام في قبائل العرب وحد لغتهم فإنه يصعب أن نتصور أنه كان ثمة لغة مشتركة تختلف عن لغات النقوش المنتشرة في أنحاء شبه الجزيرة العربية كلها قبل أن يجيء الإسلام هذا العنصر الموحد.(٤٤)

وواضح تماما أن مرجليوت ينكر وجود لغة مشتركة موحدة للعرب قبل أن يجيء الله بالإسلام، على أنه يرى أن توحد هذه اللغة بين قبائل العرب إنما كان أثرا من الإسلام.

أما فولرز فقد ذهب إلى مثل هذا أيضا، حين زعم أن القرآن لم ينزل بلغة أعراب نجد واليمامة وإنما نزل بلغة أهل مكة أي لغة قريش ولو أن الأمر وقف بفولرز عند هذا الحد

---

(٤٤) ناصر الدين الأسد، *مصادر الشعر الجاهلي*، ط٥ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٨م)، ص٣٦٤.

لقلنا إنه رأي قريب مما يدور على ألسنة الناس دون تحقيق لكيفية تكون هذا اللسان القرشي.

ولكن فولرز يمضي ليلتقي مع رأي مارجليوث المتقدم، وذلك حين يصف هذه اللغة القرشية بأنها لم تكن لغة معربة، وإنما كانت لغة محلية، ثم يقول: «فلما دونت قواعد العربية وثُبِّتَتْ، وطُبِّق الإعراب على القرآن، صُقلت لغة قريش وفقا لهذه القواعد.»(٤٥)

هذان الرأيان، وما نشأ حولهما من آراء تدور في إطار تصورهما لهذه الفصحى المشتركة هي التي وصلت هذه القضية بموضوع هذه الدراسة عن الفصحى. ذلك أن هذا التصور لا يصطدم مع جملة الآراء التي قدمناها للقدماء والمحدثين فقط وإنما يصطدم تماما مع معجزة القرآن الأولى وهي المعجزة البيانية إذْ كيف يمكن أن نتصور أن يكون مدار الإعجاز في القرآن الكريم على بيانه ونظمه بينما حال لغة العرب يومئذ من هذه الصورة التي أوردها مارجليوث وفولرز وغيرهم وهي صورة لا ينهض بها دليل واضح بقدر ما تعتمد على الفرض والحدس وعلى رغبة مشبوهة في هدم التصور الإسلامي لنشأة هذه اللغة وتكونها وهو تصور يجعلنا أقدر على فهم معجزة القرآن الأولى، ومدارها بيانه ونظمه، وما رافق ذلك الإعجاز من التحدي الصريح في غير آية بينة.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.(٤٦)

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.(٤٧)

---

(٤٥) جواد علي، *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*، ط٢ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٨م)، مج٦، ص ٦٢٧.

(٤٦) سورة البقرة، الآيتان، ٢٣، ٢٤.

(٤٧) سورة هود، الآية ١٣.

ثم يعود هذا التحدي الواضح في طلب الإتيان بسورة واحدة لا بعشر سور كما تقدم في الآية السابقة وذلك قول الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.(٤٨)

وقد رأى أهل العلم أن «مدار الإعجاز الذي رافقه التحدي إنما كان أسلوب القرآن وبيانه ونظمه ولم يكن لشيء خارج عن ذلك».(٤٩)

فإذا كانت معجزات الرسل والأنبياء من جنس ما نبغ فيه الناس يومئذ فإن معجزة القرآن الكريم كانت من هذا النوع أيضا معجزة رافقها التحدي فيما نبغ فيه الناس يومئذ وهو بلا شك نبوغهم في استعمال الفصحى.

ولعل في النص الذي أورده الطبري وجعله بين يدي تفسيره المشهور ما يوضح هذا الأمر بصورة واضحة.

يقول الطبري في مقدمة كتابه الكبير في تفسير القرآن وهو في ذلك يتحدث عن رسول الله ﷺ: «فبين أن لا بيانَ أبينُ، ولا حكمةَ أبلغُ ولا كلامَ أشرفُ، من بيان ومنطق تحدى *به امرؤ قوما في زمان هم فيه رؤساء صناعة الخُطب والبلاغة، وقيل الشعر والفصاحة، والسجع والكهانة على كل خطيب منهم وبليغ، وشاعر منهم وفصيح، وكل ذي سجع وكهانة . . . وأخبرهم أن دلالته على صدق مقالته وحجته على حقيقة نبوته، ما أتاهم به من البيان والحكمة والفرقان، بلسان مثل ألسنتهم ومنطق موافقة معانيه معاني منطقهم ثم أنبأهم جميعا أنهم عن أن يأتوا بمثل بعضه عجزة وعن القدرة عليه نقصة، فأقر جميعهم بالعجز، وأذعنوا له بالتصديق وشهدوا على أنفسهم بالنقص.*»(٥٠)

---

(٤٨) سورة يونس، الآية ٣٨.

(٤٩) محمد لطفي الصباغ، *لمحات في علوم القرآن الكريم* (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٧٤م)، ص ص ٥٥، ٥٨.

(٥٠) الطبري، تفسير، مج١، ص ص ٩، ١٠.

وحسبنا ما في هذا النص من البيان الواضح ما يجلي عن الحقيقة التي نسعى إلى تأكيدها وهي أن الفصحى كانت قد استوت قبل أن يجيء الله بالإسلام بزمن يكفي لأن يظهر المتحدثون بها براعة فائقة في صياغة الكلام من خطب وشعر مع كثير من الفصاحة.

القضية الثانية: تتصل بأوليَّة الشعر الجاهلي وصلتها بزمن نشوء الفصحى وتكونها. وللدارسين في أوليَّة الشعر الجاهلي نظريتان نظرية القدماء ونظرية المحدثين؛ أما القدماء فثلاثة أولهم ابن سلام الجمحي صاحب *طبقات فحول الشعراء* والثاني الجاحظ والثالث ابن قتيبة، وسأورد رأي الأول والثاني؛ أما ابن قتيبة فكان في رأيه يردد كلام ابن سلام نفسه.

يقول ابن سلام «ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حاجته، وإنما قُصِّدت القصائدُ وطُوِّل الشعرُ على عهد عبدالمطلب وهاشم بن عبد مناف،»(٥١) وتابعه في هذا الرأي ابن قتيبة فقال: «لم يكن لأوائل الشعراء إلا الأبيات يقولها الرجل عند حدوث الحاجة.»(٥٢) وواضح أن ابن سلام يؤرخ لهذه الأولية بزمن عبدالمطلب وهاشم بن عبد مناف أي بنحو قرن ونصف قبل الإسلام. وهو ما ذكره الجاحظ تحديدا حين قال: «أما الشعر فحديث الميلاد صغير السن أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر ومهلهل بن ربيعة فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام.»(٥٣)

وواضح هنا أيضا أنه لا ابن سلام ولا الجاحظ ولا ابن قتيبة وضع تفسيرا لمثل هذه الأوليَّة للشعر الجاهلي. وواضح أيضا أنهم يتحدثون عن أولية ناضجة للقصيدة الجاهلية

---

(٥١) ابن سلام، محمد بن سلام الجمحي، *طبقات فحول الشعراء*، تحقيق محمود محمد شاكر (القاهرة: مطبعة المدني، ١٩٧٤م)، مج١، ص٣٦.

(٥٢) ابن قتيبة، أبو محمد بن مسلم بن قتيبة الدينوري، *الشعر والشعراء* (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٧م)، المقدمة، ص٢١.

(٥٣) الجاحظ، أبوعثمان، عمر بن بحر (١٥٠ ـ ٢٥٥هـ)، *كتاب الحيوان*، تحقيق عبدالسلام هارون (القاهرة: مكتبة مصطفى الحلبي، ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م)، مج١، ص٧٤.

كتلك التي وصلتنا في أشعار امرىء القيس ومهلهل وهذا يعني أن النظرية القديمة في التأريخ لأولية الشعر الجاهلي بدأت به منذ قصد وطول فيه واستوت له تقاليده الفنية. وأنهم جعلوا ذلك كله قبل أن يجيء الله بالإسلام بنحو خمسين ومائة عام إلى مائتي عام.

وقد ظل أمر هذا التاريخ دون تفسير مقبول يربطه بأسبابه حتى جاءت النظرية الحديثة فعالجته من نحوين: نحو يصل ما انقطع بين هذه الأولية الناضجة وبين طفولة الشعر الجاهلي إذ لابد لهذه الأولية الناضجة من أولية سابقة مهدت لها وقادت إليها، فالتمسوا ذلك في مرحلة السجع ثم الرجز ثم البحور أحادية التفعيلة التي تطورت عنها بحور الشعر المختلفة التي قادت إلى القصيدة الناضجة.(٥٤) *ونحو آخر فسروا به نظرية القدماء المتقدمة في قول ابن سلام والجاحظ حول تاريخ الأولية الناضجة فاجتهدوا في ربط هذا النضج الذي أصاب الشعر العربي بالمرحلة التي تكونت فيها الفصحى.*

وقد أدرك هذه الحقيقة الدكتور شوقي ضيف فأفصح عنها بقوله: «وترى أن الخط العربي تكامل مع أوائل القرن السادس (الميلادي) *كما تكاملت الفصحى نفسها وأخذت شكلها النهائي بشهادة نصوص الشعر الجاهلي الذي يرجع أقدمها إلى أواخر القرن الخامس، فمنذ ذلك التاريخ تقاربت لهجات القبائل وأصبحت هناك لغة أدبية عامة هي الفصحى. ينظم بها شعراء العرب جميعا أشعارهم.*»(٥٥) وإلى مثل هذا يذهب الدكتور يوسف خليف أيضا إذ يقول «إن المرحلة التي تم فيها لهذا الشعر نضجه وتكامله لا يمكن أن تبتعد كثيرا عن القرن السادس (الميلادي)... *في هذه المرحلة التي شهدت الأولية الناضجة للشعر الجاهلي كانت هناك عوامل متعددة هيأت لظهوره في هذه الصورة الناضجة حين أتاحت لظهور لغة أدبية موحدة تحدث بها لغات القبائل.*»(٥٦)

---

(٥٤) انظر الدراسات التي نشأت حول أولية الشعر الجاهلي فيما كتبه الدكتور شوقي ضيف، *العصر الجاهلي*، ص ص ١٨٣، ١٨٥، وما كتبه الدكتور يوسف خليف، *دراسات في الشعر الجاهلي* (القاهرة: مكتبة غريب، ١٩٨١م)، ص٥٩.

(٥٥) ضيف، *العصر الجاهلي*، ص١٢٠.

(٥٦) خليف، *دراسات*، ص ٥٩.

أما الدكتور حسن ظاظا فيرى أن هذه الفصحى تعد من أقدم اللغات السامية ميلادا وأرسخها قدما في خصائص العائلة اللغوية كلها. . . ويذكر أن هذه اللغة كانت تستعمل عندما يعظم الخطب في المناسبات الاحتفالية الكبرى وذلك على مشارف الجاهلية الأخيرة، ثم يمضي الدكتور ظاظا في ذكر الميادين التي كانت تستعمل فيها هذه اللغة حتى يأتي على ذكر الشعر فيقول: «إن الشعراء استخدموا هذه اللغة في شعرهم حتى يضمنوا له ذيوعا وانتشارا لا تصل إليه لهجة من لهجاتهم القبلية.»(٥٧)

ولعل في هذه الآراء التي تمثل وجهة نظر المحدثين في أولية الشعر الجاهلي ولغته ما من شأنه أن يدعم القول بأن الزمن الذي تم فيه تكون الفصحى يرجع في متوسط الآراء إلى أواخر القرن الخامس أو أوائل السادس الميلادي أي قبل أن يجيء الله بالإسلام بنحو قرن ونصف تقريبا. وهي فترة غير قليلة أتاحت للعرب أن يظهروا تميزا ونبوغا في استعمال هذه اللغة حتى غدوا في ذلك كما يقول الطبري رؤساء صناعة الخطب والبلاغة وقبل الشعر والفصاحة والسجع والكهانة ومن هنا نفهم لماذا كان مدار الإعجاز الذي رافقه التحدي في القرآن على بيانه ونظمه.

---

(٥٧) حسن ظاظا، كلام *العرب* (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٦م)، ص ص ١، ٥٩.

A Comparative Study of the Theories of the Ancients and Moderns of Standard Arabic

Hassan Eissa Abu Yassien

Assistant Professor, Department of Arabic, College of Arts, King Saud University
Riyadh, Saudi Arabia

Abstract. This paper surveys the various views, both old and modern, on the origin and structure of standard Arabic. These views are classified along two theoretical perspectives: the modern perspective of Taha Hussein, Shawqy Dheif, Mustafa Sadeq Al-Rafi'i, Ibrahim Anis; and the perspective of the ancient Arabs. For this latter, a number of texts are examined to determine a consensus of opinion on the origin and development of standard Arabic. The two perspectives are then compared and evaluated. The paper also discusses two important issues related to the origin and development of standard Arabic; namely, the miraculous rhetoric of the Holy Quran, and the rudimentary nature of pre-Islamic poetry. Terminology and notation employed in the study are comprehensively explained.